بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 05 مايو 2017

المثقّف والسلطة:
علاقة حياد أم انقياد؟

رشيد المشهور / يوسف حمّوش
باحثان مغربيان

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الملخّص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف عن طبيعة العلاقة بين المثقف والسلطان[1]*، وتلمُّس التمفصلات بين حدّيْها، من خلال مقاربة نقدية مفهومية لكل من المثقف والسلطان، بعيدًا عن المقاربات التي تندرج ضمن سياق الآداب السلطانية أو التأصيل لما يسمى (الإسلام السياسي)، والتي عالجت الموضوع من زاوية علاقة (العالم) أو الفقيه، بالسلطان الحاكم أو ولي الأمر، وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر عبر التراث العربي الإسلامي، وقد حاولت هذه الدراسة التأصيل النظري للمفهومين من منطلق مقاربة فلسفية وسوسيولوجية، ولا تزعم الإحاطة بالموضوع في شموليته وامتداداته؛ وإنما تسهم في تحديد طبيعة المثقف وملامحه دون التحامل عليه، أو تقديسه، أو اعتباره مصدرًا للخلاص من الأزمات، وعلاوة على ذلك، تهدف هذه الدراسة إلى تأمّل المسافة التي تفصل المثقف عن السلطان أو السلطة والنفوذ.

1- لقد ميزنا في هذا المقال بين مفهومي السلطان (**Pouvoir**)، والسلطة (**Autorité**).

مدخل:

يسعى الإنسان إلى المعرفة باعتباره كائنًا عارفًا، يتطلّع على الدوام لاكتشاف ذاته، وعالمه الخارجي، وذلك من أجل التماشي مع محيطه، ومن ثمة تغييره، والرقيّ به، وإضفاء الطابع الإنسانيّ عليه.

ولمّا كان «الإنسان من طبعه حيوانًا مدنيًا»[2]، وكان محكومًا بوازع السلطان، لدفع عدوانيّة بني جنسه، أو بتعبير ابن خلدون: «لا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض، فيكون ذلك الوازع واحدًا منهم، ويكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتّى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو الملك»[3]، وكان السلطان لا يتقاطع والمعرفة الدقيقة أو الحقيقة[4]، بالضرورة؛ فإنّه أصبح في مأزق، ومن هذا المنطلق، أصبحت العلاقة بين الباحث عن الحقيقة، وحامل الفكر الحرّ، والمناهض للوهم والتضليل من جهة، ومالك السلطان مهما كانت مشروعيّته وشرعيّته، من جهة أخرى، متوتّرة وقلقة، وتتأرجح بين الحياد والانقياد، وتعرف تجاذبًا تارة، وتنافرًا تارة أخرى، ممّا أدّى إلى ظهور العديد من أنماط ما أصبح يعرف، فيما بعد، بالمثقفين، وتمّ تحديد أصنافهم من منظور تخصّصات معرفيّة مختلفة، في مجالات؛ الفلسفة، والأدب، والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، وخاصّة سوسيولوجيا المثقفين، بوصفها مشروعًا طموحًا، وورشة مفتوحة للاشتغال.

وتحوّل (المثقف) إلى موضوع تفكير انعكاسي سواء في علاقته بذاته، أو بباقي أنماط (المثقفين) الآخرين، أو القوّة، أو النفوذ، أو الكفاءة[5].

المثقّف؛ محاولة للتحديد:

من أين ينبغي أن تبدأ الكتابة حول موضوع المثقف والسلطة؟ وأين يجب أن تنتهي؟ ولماذا العودة المكثفة إلى موضوع المثقف في الآونة الأخيرة؟ في اعتقادنا، كلّ النقاشات التي تثار حاليًا حول المثقف، ترجع بالأساس إلى الرجّات السياسيّة والاجتماعيّة التي شهدها الوطن العربي، ومازال يعيش تحت وطأتها، منذ ما سُمّي في حينها بـ (ثورة الياسمين في تونس)؛ إذ كشفت تلك الأحداث عن فجوة عميقة بين واقع المثقف ووعيه، ونقصد تلك الهوّة التي مافتئت تتّسع بين ما هو منتظر منه إنجازه؛ من تغيير، وقيادة، وتوجيه، وبين

2- أرسطو، **السياسات، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونسكو)، ونقله من الأصل اليوناني إلى العربية**، الأب أوغستينس بربارة البولسي، بيروت- لبنان، 1987م، ص ص 8- 9. وللاطلاع أكثر، انظر كتاب الجمهورية لأفلاطون.

3- عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون؛ وهي مقدمة الكتاب المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم منذو بالسلطان الأكبر)**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ص 34.

4- نشير، هنا، إلى مأساة الكثير من الفلاسفة والعلماء، مثل؛ سقراط، أو ابن رشد، أو جيوردانو برونو، أو غيرهم في تاريخ الإنسانية وحاضرها.

5- انظر مثلًا: Jean Baechler, **Le Pouvoir pur**, Calmann Lévy 1978

ما أنجزه بالفعل على أرض الواقع؛ حيث انفجرت العلاقة بين الدال والمدلول، وبين الموضوع والمحمول، فأنتجت مثقفًا عاجزًا ومسلوب الإرادة، ويشعر بالغربة في وطنه.

قضيّة التسمية:

ما الاسم الذي ينبغي أن يطلق على الفئة التي تنتج المعرفة والقيم، والأفكار، والرّموز، والفنّ، والأدب، بواسطة آليّة الكتابة، والنشر، والتداول، والإعلام، وغيرها، وتنتج الثروات، وتدبّر الشأن العامّ والفضاء المشترك للمواطنين؟ إنّ أسماء من قبيل؛ المثقفين، أو النخبة، أو الصفوة، أو الخاصّة، أو الشخصيّات، أو الإنتلجنسيا ...، تتبادل الأدوار في هذا الحقل التداولي ما جعل (جيرار ليكليرك Gérard Leclerc) يرى؛ أنّ المثقف يتعالى على الاختصاص المهني، «يتجاوز المثقف حقل مهارته المهنيّة (أديبًا، ومؤرّخًا، وعالم اجتماع، وفيزيائيًا، ...إلخ) ليتكلّم في أمور ليس خبيرًا فيها؛ بل هو يرى نفسه معنيًا بها؛ بل هو متورّط فيها»[6]. لكن بعض التخصّصات تلعب دورًا جوهريًا في التحفيز على تملّك الهمّ الثقافي، والانخراط الفاعل في المجتمع، ومحاولة الإسهام في التغيير المنشود، ومن هذا المنطلق، سنتّخذ من الدراسات والأبحاث في علم الاجتماع بالمغرب، حول هذا الموضوع، نموذجًا ومنطلقًا لِتَلَمُّسِ مسارات المثقف ومفاعيله، ثم علاقته بالسلطة، فيما بعد.

لعلّ أوّل ما ينبغي البدء به في هذا العرض؛ هو التحديد المفاهيمي لماهية كلّ من (المثقف) و(السلطة)، وتجدر الإشارة في هذه النقطة، إلى ضرورة فهم ماذا نقصد بالمثقف بداية؟ هل هو العالم، أم الأديب، أم المهندس، أم المعلم، أم الفنان، أم الإعلامي، أم ماذا؟ أهو من يشتغل على إنتاج الأفكار، وتداول الحقائق والقيم؟ أم هو من يصنع الحدث التاريخي، ويوجّه التاريخ وحركته، ويؤثّر في مجرياته؟ وهل مازالت الحاجة إليه مُلحّة، كما كانت في بداية حركات تحرّر دول العالم الثالث ضدّ الاستعمار وبناء الدولة الوطنيّة؟ ألم تثبت فجائية وزخم الحركية الاحتجاجيّة، في العالم العربي مؤخّرًا، محدوديّة قدرته على استشراف المستقبل وقراءة التاريخ؟ وهل الحضور الفعّال لـ (النشطاء السياسيّين الشباب) داخل المشهد السياسي العربي، بات ضرورة لملء الفراغ الذي تركه غياب المثقف؟ وهل تشهد المرحلة التاريخية الراهنة ميلاد (الناشط السياسي) و(موت المثقف) على غرار (موت المؤلّف) مع البنيوية؟ أليس الضمور التدريجي للدور التنويري، الذي كانت تحظى به الجامعة، مقابل سطوة السياسة والإعلام، خلق (وعيًا شقيًا)، وساهم بشكل أساسيّ في (اغتراب) المثقف؟ وهل من المشروع أن نتحدّث عن غياب المثقف واغترابه، أم أنّه كان ومازال

6- جيرار ليكلرك، **سوسيولوجيا المثقفين**، ترجمة: د. جورج كتوره، سلسلة نصوص، بنغازي – ليبيا، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، يناير 2008م.

وسيظلّ حاضرًا وفاعلًا في مجرى التاريخ وسيرورة الواقع؟ هل المثقف داعية؟ وإذا كان كذلك، هل مات الداعية؟ أم أنّه قائم الوجود في اختفائه وتواريه؟ وما موقعه في ظل سيادة منطق السوق والدولة؟ ألم يتحول المثقف إلى سلعة في سياق زمن (سلعنة) العالم والوجود الإنساني و(سوقنته)؟

إنّ تداول مفهوم (المثقف) في السياق المغاربي والشرق الأوسط، يستدعي بالضرورة العودة به إلى التربة السوسيوتاريخية التي أفرزته، إلى السياق الغربي، والفرنسي خاصّة؛ أي إلى حادثة المحاكمة الشهيرة التي باتت تعرف بقضية دريفوس؛ حيث كان (ألفرد دريفوس Alfred Dreyfus) ضابطًا في الجيش الفرنسي برتبة قبطان، تمت إدانته، سنة 1894م، من لدن محكمة فرنسية، في قضية تجسّس وخيانة، بتهمة تسريب معلومات عسكرية إلى مخابرات الجيش الألماني، ومن ثمّ، أصبحت هذه القضية تؤرّخ إلى شهادة ميلاد مفهوم المثقف؛ لأنّها استطاعت تقسيم الرأي العام الفرنسي والنخبة المثقفة إلى فريقين: فريق يناصر الحكم القضائي، وفريق يرفضه ويطالب بمراجعة الحكم، خصوصًا، بعدما تمّ الحصول على وثائق تنفي، من وجهة نظرهم، التهم عن المتّهم. فقام هذا المعسكر الأخير، بزعامة كبار المفكّرين ورجال الأدب، مثل: (إميل زولا Émile Zola)، و(مارسيل بروست Marcel Proust)، و(شارل سينيوبوس Charles Seignobos) وغيرهم، بالتعبير عن آرائهم المناوئة والرافضة لكلّ عمل من شأنه المسّ بمبدأ الحق في محاكمة عادلة ومبادئ حقوق الإنسان، وذلك من خلال إصدار (بيان المثقفين Manifeste des intellectuels) الذي ضمّ توقيعاتهم؛ فكان لأوّل مرّة يطلق اسم (المثقفين) على فئة من المفكّرين يدافعون عن المواطن ويواجهون السلطة[7].

لا شكّ، إذن، أنّ مفهوم المثقف خرج من رحم الأحداث، والاحتجاجات الميدانية، والأزمات الاقتصادية، والسياسيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة، ولكنّه، لم يتّخذ شكلًا وحيدًا للتعبير عن انخراطه الاجتماعي، وآرائه السياسيّة، وتفاعله الإيجابي مع الوقائع، كما أنّه لم يتمترس في موقع وحيد تجاه السلطة ومفاعيلها، لهذا، يمكن أن نجد تذبذبًا في العلاقة بين المثقف والسلطة، تتأرجح هذه العلاقة بين الحياد حينًا، والانقياد أحيانًا. كما يتجلّى ذلك في مختلف الأدوار التي يلعبها المثقف للتعبير عن مواقفه في الساحة السياسية، وكذا الثقافيّة.

إنّ الزوج المفهومي (المثقف) و(السلطة) يشكّلان موضوعًا بالغ التعقيد والالتباس، يستمدّ أهميّته من كونه مازال يتّسم بالجدة والراهنية؛ حيث لا يهدأ النقاش حوله إلاّ ليبدأ من جديد، فهو الغائب الحاضر دومًا، مثل طائر الفنيق، ينبعث من رماده كلّما آل إليه، وذلك لارتباطه بالصراع، وتضارب المصالح، والعلاقات، والأدوار على جميع المستويات والأصعدة، بين الفاعلين الاجتماعيين والاقتصاديين.

7- الجابري محمد عابد، **المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2001م، ص 23.
انظر أيضًا: الشيخ محمد، **المثقف والسلطة، دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر**، بيروت، دار الطليعة، 1991م، ص 15.

وهذا، بالضبط، ما جعل كلّ سؤال يروم تسليط الضوء على طبيعة أدوار المثقف، والكشف عن علاقته بالسلطة، يستدعي المتابعة والملاحقة بالمزيد من الأسئلة الأخرى، والمزيد من الدراسات والأبحاث الفردية والجماعية؛ إذ لا يكفي معه التناول السريع والمقتضب، خاصة وأنّه يتطلّب التنقيب في الحقل السوسيولوجي الذي أفرز المثقف والسلطة معًا؛ حيث لا يمكن فهم ماهيتيهما وطبيعة العلاقة التي تجمعهما دون العودة إلى البيئة السوسيوتاريخية التي أفرزتهما.

إن سؤال المثقف؛ هو سؤال أنثروبولوجي، وسوسيولوجي، وفلسفي، كونه يلازم الذات الإنسانية والإنسان، كما هو معلوم، حيوان رامز[8]، يتحدد في التاريخ بالنظر إلى المكان والزمان؛ وهو ذاتٌ لها هوية، وقيمة في العالم، وتسعى باستمرار للتحرر من الشروط الذاتية والموضوعية، ويثابر من أجل تكوين نظرة عن العالم والوجود، لذلك؛ فالمثقف هو الإنسان الذي يمتلك ثقافة[9]، ومعرفة علمية، أو أدبية، أو فنية، أو غيرها.

ثقافة تشمل معرفة عابرة للتخصّصات الذرية، الضيقة، عموديًا وأفقيًا، والتي يوظفها في المجال العمومي من أجل تغييره أو إعادة إنتاجه، بمعنى آخر؛ إنّ المثقف هو الشخص الذي يحوز على رأسمال ثقافي، يسعى إلى تحويله وبلورته في صيغة مشروع فكري وإيديولوجي، بُغية تنزيله في الواقع لتغييره أو الحفاظ عليه وتأبيده. لهذا، فحَدُّ المثقف إمّا أن يكون محافظًا ومدافعًا عن الواقع القائم، ويحتمي وراء السلطة، ويجتهد لتبرير قراراتها وممارساتها باستعمال قلمه، ورأسماله الرمزي، وثقله المعرفي الذي قد يستمده من الماضي التليد، متشبثًا في ذلك بهوية تاريخانية منغلقة، أو يستثمر معطيات الواقع والفكر العلمي بانتقائية واختزالية، وإمّا أن يكون ناقدًا يسعى إلى نفي ما هو كائن واستبداله بما ينبغي أن يكون؛ أي أنّه يطمح، حسب تعبير (جون بول سارتر Jean-Paul Sartre)، إلى تحقيق ما هو غير موجود بالاعتماد على ما هو موجود، أو جعل ما هو سائد أداة لما يجب أن يسود؛ لأنّ المعرفة العلمية في نظره، قبل أن تكون محايدة؛ هي في عمقها انخراط وتدخل من أجل خلق إمكانيات جديدة والإجهاز على كلّ قديم يترنّح[10].

8- كاسيرر إرنست، **مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، أو مقال في الإنسان**، ترجمة: إحسان عباس، بيروت، دار الأندلس، 1961م، ص 69.

9- لا بالمعنى الأنثروبولوجي لمفهوم الثقافة؛ وإنما يتعلق الأمر بما يمتلكه المرء من معارف، ومعطيات نتيجة للمستوى التعليمي، ومواكبته للمستجدات.

10- Jean Paul SARTRE « **Plaidoyer pour les intellectuels** ».

ورد عند أفاية محمد نور الدين ،**الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1988م، ص ص 63- 64.

وبهذا المعنى، يجد المثقف نفسه ممزّقا بين مبدأين اثنين؛ مبدأ الواقع، ومبدأ الحلم، فإمّا أن يبرر الواقع كما هو، ويعود إلى نوستالجيا يفجّر المكبوت عبرها، أو يحلم بمستقبل أفضل، ويعمل على تكريس وسائل وأدوات عقلانية للتطلع إليه وتجسيده، وهذا شأن المفكّر الحرّ[11].

سوسيولوجيا المثقفين في التداول المغربي:

لقد عرف العالم في تسعينيات القرن الماضي تحولات سياسية وتاريخية عميقة، وخاصة سقوط جدار برلين، وانهيار الاتحاد السوفياتي، وحرب الخليج الثانية وتداعياتها، وإسهامها في إعادة تشكيل الخريطة الجيوسياسية العالمية، وينطبق الأمر نفسه على المنطقة العربية؛ التي بدورها عرفت تحولات جذرية مسّت البنيات الذهنية والموضوعية، وأعادت النقاش من جديد حول المثقف أدواره، وظائفه، وفاعليته، وبهذا الصدد؛ نجد السوسيولوجي المغربي أحمد شراك، يصنّف المثقفين، لا بهدف توصيفهم فقط؛ وإنّما لتحديد مجال فعاليتهم وديناميتهم في الفضاء الاجتماعي والسياسي.

وبناء على مرجعيّات نظرية محدّدة، ميّز أحمد شراك بين ستّة أنواع من المثقفين المغاربة[12]، وبحذر شديد؛ مخافة الانزلاق والاختزال والتعميم والتنميط، وذلك وفق النموذج التالي:

مثقّف حركي (مناضل)[13]: هو المثقف الناشط سياسيًا، الذي لا ينفصل عن فعل النضال والانخراط في المجتمع، والعمل على نشر الأفكار والقيم والخطاب السياسي فيه؛ فهو المثقف العضوي الملتزم بقضايا التنظيم السياسي على حدّ تعبير (أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci).

مثقف فقهي[14]: مثقف طوباوي حالم، ينطلق من مبدأ ما ينبغي أن يكون وليس ما هو كائن؛ بل وقد يتهم الرؤى السائدة والطروحات المتداولة بالتدنيس أحيانًا، فهو مثقف محكوم بمبدأ الحلم.

11- الوريا شي قيس مرزوق، **محاضرة حول أدوار المثقف في زمن العولمة**، تنظيم الجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة، فرع وجدة، المغرب، 2016/05/27م.

12- انظر: شراك أحمد، **الثقافة والسياسة**، سلسلة شراع، طنجة، المغرب، 2000م.

شراك أحمد، **فسحة المثقف قبل وبعد 11 شتنبر 2001م**، الدار البيضاء، اتصالات سبو، الطبعة الأولى، 2006م، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب.

13- مرجع سابق، ص 32.

14- المرجع نفسه، ص 32.

مثقف مزدوج [15]: مثقف يجمع بين نوعين من الممارسات؛ الإنتاج الفكري والقيمي، والرمزي، وفي الآن نفسه، الانخراط المباشر في العمل السياسي فكرًا وممارسة؛ فهو المثقف الذي يزاوج بين المستويين في العمل؛ بين ما هو رمزي، وما هو سياسي.

مثقف براغماتي[16]: مثقف يطمح إلى السلطة، وذلك من أجل تحقيق غايات فردية أو جماعية خاصة، وهو يمارس السياسة بالمعنى الفيبري؛ الذي يعتبر أنّ السياسي يتميز بثلاث صفات أساسية؛ الشغف، والشعور بالمسؤولية، وبعد النظر[17]، وبهذا المعنى، يتميز هذا المثقف بكونه واقعيًا، يدرك ما يفعل، وما يطمح إلى تحقيقه، بروح المسؤولية والجدية، وينتقي وسائله وطرقه بعقلانية، ووفق ما يحقّق غاياته وأهدافه بعيدًا عن الاستبداد أو الانتهازية والوصولية.

مثقف رمزي[18]: مثقف يختلف عن باقي المثقفين باعتباره باحثًا شغوفًا، ومبدعا أصيلًا، ومفكرًا متميزًا، يطغى عليه النزوع نحو المادة التخصّصية، وهو محكوم في إستراتيجياته البحثيّة؛ بقيم الجمال، والفكر العلمي: (وهو مثقف بدأت تتسع دائرته في المشهد العلمي والثقافي، وانخراطه في الشأن العام يكاد يكون خجولًا، وإن كان يفسر الواقع، أو يساهم في تفسيره رمزيًا وجماليًا، دون أن يمنعه أحد من الانخراط في الشأن العام والدفاع عن قضايا الإنسان والمجتمع)[19].

مثقف مشاكس (متشاكس)[20]: هو المثقف الذي ينبغي أن يكون، وهو، بالطبع، ليس هو المثقف المهمش؛ بل الهامشي نسبة إلى الهامش، ويتحدد، حسب شراك دائمًا، ضمن رؤى متعددة؛ فهو المثقف الناقد المتحرر من قيود ما، هو سياسي؛ وهو بهذا المعنى ليس معارضًا للدولة؛ بل للسلطة، كيفما كانت طبيعتها، وهو الكائن الناقد؛ بل والميتا- نقدي[21]، وهو مثقف السلطة الذي يُؤخذ ما يكتبه بعين الاعتبار والحسبان؛ فهذا المثقف ليس عدميًا أو معارضًا لكلّ شيء كيفما كانت طبيعته وماهيته؛ إنّه مثقف يعتبر التدين دعامة للحداثة والتقدم، ومن ثمّ، للتسامح والرقي، والتواصل مع الغير، وبناء الحضارة. وهو في النهاية، مثقف فاعل خارج المؤسسة السياسية، ومستمر في الزمن، مادام يستمد هوية المشاكسة هذه من الهامش بالضرورة.

15- المرجع نفسه، ص 32.

16- المرجع نفسه، ص 32.

17- فيبر ماكس، **العلم والسياسة بوصفهما حرفة**، ترجمة: جورج كتورة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، يوليوز 2011م، ص 341.

18- شراك أحمد، مرجع سبق ذكره، ص 34.

19- المرجع نفسه، ص 34.

20- المرجع نفسه، ص 34.

21- المرجع نفسه، ص 35.

بناء على التصنيف الذي قدمه أحمد شراك، يتّضح أنه اتخذ من الانتماء و/أو عدم الانتماء إلى المؤسسة، معيارًا للتمييز بين المثقفين؛ حيث اعتبر أن الفعل السياسي هو القاسم المشترك بين النماذج الأربع الأولى، في حين أن النموذجين الخامس والسادس من المثقفين، يندرجان خارج المؤسسة، بفعل النزوع إلى التخصص، والنقد أو الميتا-نقد[22] على التوالي، ويبقى هذا التصنيف قابلًا للتطوير في ضوء التغيرات التي طرأت على المنطقة العربية في إطار ما يسمى بـ (الربيع الديموقراطي)، وأحداث 2011م وما بعدها[23]، وظهور ما يسمى بالمثقف الإرهابي[24]، في الفكر، والخطاب، والفعل، سواء أكان باسم الدين أو اللغة، أو العرق، أو أي اعتبار آخر.

وللمزيد من الدقة والعمق حول سبر أغوار إشكالية الموضوع أعلاه، ارتأينا؛ تقديم تصنيف السوسيولوجي (عبد المالك ورد) لعلماء الاجتماع في المغرب.

تصنيف المثقفين في الحقل السوسيولوجي المغربي:

لقد صنف (عبد المالك ورد) في مقال له[25]، علماء الاجتماع المغاربة إلى أربعة أنواع:

- علماء الاجتماع المُدرسين (les sociologues enseignants): يتخذون من التدريس غاية لهم، ويتواجدون في كليات الآداب أو مسالك السوسيولوجيا المستقلة عن الشُّعوب الأخرى، وأيضًا، في بعض المؤسسات الجامعية الأخرى؛ حيث تدرس السوسيولوجيا كمادة ثانوية، وإنتاج هؤلاء يرتبط بتأطير أطروحات الدكتوراه، وإلقاء المحاضرات، وإعداد الدروس، وإنجاز أنشطة التقويم والامتحانات، وقطع الصلة مع الميدان؛ لكونه، في نظرهم، تَرفًا فكريًا، وموضوعًا يتخذ طابعًا تأمليًا ونظريًا، في حين، لا تتجاوز إنتاجاتهم العلمية شكل ملاحظات نظرية عند إشرافهم على أطروحات الدكتوراه، وهم منقطعون، على نطاق واسع، عن الشبكات الحيوية التي توفر الأدوات الأساسية لعمل آخر، على حد تعبير عبد المالك ورد.

- علماء اجتماع الساحة الإعلامية- السياسية (les sociologues figures politico-médiatiques): يشارك هؤلاء في معالجة القضايا الاجتماعية التي تحظى باهتمام الإعلام، ويساهمون

22- المرجع نفسه، ص 36.

23- للاطلاع على الموضوع أكثر، من زوايا أخرى؛ يمكن الاستئناس، هنا، بالعمل الذي أبدع فيه الشاعر والناقد المغربي صلاح بوسريف.

- بوسريف صلاح، **المثقف المغربي بين رهان المعرفة ورهانات السلطة**، دفاتر وجهة نظر، عدد 28، مطبعة النجاح الجديدة، الرّباط- المغرب، الطبعة الأولى، 2014م.

24- يتخذ مفهوم الإرهاب في هذا السياق، معنى؛ الترعيب، والتخويف، والعنف السافر غير المشروع واللاشرعي.

25- Abdelmalek Ouard, La sociologie au Maroc «**retour réflexif et engagé d'un praticien**».

- https://sociologies. revues org/5148.

بإنتاجات، (caméraliste)[26]، على حد تعبير (ريمون بودون boudon raymond)، مزودة بمعلومات تخدم رهان تحريك المشاعر والتحريض الوجداني أكثر من الفعل نفسه.

- علماء الاجتماع الخبراء والاستشاريين (les sociologues experts consultants): هم موظفون يتبعون تخصصهم، ما يدل على اندماجهم في شبكات وطنية ودولية، وسيطرتهم، حد الاحتكار، على المسوحات والدراسات التي تحتضنها الحكومة والمنظمات الدولية، وهم مؤهلون على المستوى التقني، لكن محدوديتهم تكمن في مدى مساهمتهم في البناء النظري للموضوعات البحثية التي يقاربونها.

- في النهاية؛ نجد فئة رابعة من علماء الاجتماع، وهي قليلة العدد، بدأت تختفي شيئًا فشيئًا: أولئك الذين أثْروا الموضوعات البحثية التي تنطوي على التحقيق الميداني والعمل النظري معًا، هذه الفئة؛ هي جزء من تقليد سوسيولوجي نجح في الجمع بين الجانب التجريبي والجانب النظري، في صميم الوظيفة المعرفية (العلمية) للسوسيولوجيا وعمقها.

يبدو من خلال هذا التصنيف الدقيق لعلماء الاجتماع في المغرب؛ أنّ الفئة الأكثر فاعلية وديناميةً، هي الفئة الأقل حضورًا في الفضاء العام، تلك التي تكرّس الوظيفة العلمية للسوسيولوجيا؛ وذلك لكونها نجحت في الجمع الأصيل بين الجانبين النظري والميداني، وهذا النموذج الإرشادي التصنيفي للسوسيولوجيين في المغرب، يوضح وضعية الثقافة السوسيولوجية، رهاناتها، وعلاقتها بالمجتمع وقضاياه على جميع المستويات والأصعدة، ويفيد هذا التصنيف في مقاربة الإشكالات الخاصّة بالمثقف، وعلاقته مع السلطة ومفاعيلها وتداعياتها، هنا، والآن، وفي المستقبل، وليس في حالة المغرب فقط، بل في شمال إفريقيا والشرق المتوسط بشكل عام.

السلطة أم السلطان؟

أما إذا انتقلنا إلى البحث عن جواب لسؤالنا ما السلطة؟ أو بالأحرى، ما هذا الشيء الذي يقهرنا، ويسعى جاهدًا لتدجين المثقف وتلجيمه؟ فإنّ ما ينبغي التشديد عليه؛ هو أنّ مفهوم السلطة مفهوم زئبقي، ينفلت من بين أصابع اليد كلّما حاولنا القبض عليه لتحديده، نظرًا لتداخله مع مفاهيم قريبة منه، وخاصة مفهوم السلطان،

26- مفهوم يستخدمه ريمون بودون، انظر:

Boudon R. (été 2009), «À quoi sert la sociologie?», *Esprit critique*, vol. 12, n° 02, pp. 922-,

- [http://www.espritcritique.fr/publications/1202/esp1202. pdf]
DOI: 10. 3917/cite. 010. 0133.

في ظل كثرة أنواعها السياسية والاقتصادية والدينية والإعلامية وغيرها؛ إذ اتخذ مفهوم السلطة دلالات عديدة ومتنوعة، من بينها، حسب تعبير (ميشيل فوكو Michel Foucault)؛ أنّها ممارسة محايثة للعلاقات الاجتماعية، وليست متعالية عليها أو مفارقة لها؛ فالسلطة موجودة وموزعة في ثنايا المجتمع، وتسري في كامل مكوناته وبنياته، ولكنّها تبلغ في الدولة وأجهزتها أكمل صورة لها؛ حيث تعكس الدولةُ السلطةَ بوصفها إستراتيجية معقدة[27]. وبذلك، يحاول فوكو تجنّب السقوط في السجال القائم آنذاك بين مفكري اليمين ومفكري اليسار، من خلال تقديم تحليل وتشريح سياسي لجسد السلطة، وقراءة نقدية للتصورات التي يعتبرها تقليدية ومتجاوزة، سواء الشكلانيّة الحقوقية الليبرالية منها، من جهة أولى، والتي تنظر إلى أهمية السلطة الشرعية من حيث قدرتها على الاستمرار، مقارنة بمختلف أشكال السلطة التي باتت تؤول نحو الزوال والاندثار.

تلك السلطة التي يتم التركيز، عند الحديث عنها؛ على الدستور، والقانون، والسيادة، ومصادر المشروعية والشرعية، أو الرؤى الماركسية، من جهة ثانية، كما صاغها (لوي ألتوسير Louis Althusser) في قالب بنيوي موضوعي، يستبعد الذات كفاعل، ويحصر السلطة في أجهزة الدولة، التي يمكن الفصل فيها بين الجهاز القمعي والجهاز الإيديولوجي[28].

إذا كانت السلطة هي القدرة على توجيه الأوامر من طرف آمر، سواء كان شخصًا أو جهاز دولة، نحو مأمور من أجل توجيه سلوكه في اتجاه معين؛ فإنّ هذه السلطة تصير تسلّطًا إذا امتزجت القدرة بالقوة، ويمكن أن تختلط السلطة وتستمد قوتها من الماضي، أو التقاليد، أو الدين، أو التجذر القبلي، أو المعرفة، أو المال ...، ولما كانت السلطة محايثة للمجتمع؛ فإنّها تبلغ ذروتها وتتجمّع في يد الدولة التي تمارس سلطاتها عبر مختلف الأجهزة التابعة لها، بهدف توجيه الأفراد نحو فعل معين أو دفعهم عنه، وتسعى جاهدة إلى دمج واحتواء باقي السلطات داخل مؤسساتها[29].

ترتيبًا على ما سبق؛ لا تختزل السلطة في القوة، أو النفوذ، أو الكفاءة التي يمتلكها بعض الأفراد والجماعات، ويسعون إلى ممارستها على الآخرين، كما لا ترتبط بالإخضاع والسيطرة؛ إنّها (أي السلطة) تتخلّل كلّ الجسم الاجتماعي، وترتبط بعلاقات أفراده، ومؤسساته، وبنياته المختلفة، وعلاوة على ذلك، ألا تتجذّر السلطة في عالم اليوم والمستقبل الإنساني في المعرفة العلمية وثوراتها المزمنة، والتي أصبحت ملازمة للوجود ووسيلة للتحكم في التطور الإنساني نفسه؟ إنّ السلطة تخترق كلّ البنيات والعلاقات، وتغذي شبكة المصالح، والأدوار، والوظائف، والصراعات، وموازين القوى، والتوازنات الميكرو والماكروسكوبية؛

27- Michel Foucault; «Histoire **de la sexualite 1 La volonte de savoir**», édition Gallimard, Paris, 1976, p121. 122.

28- الشيخ محمد، **المثقف والسلطة**، مرجع سابق، ص 99.

29- أفاية محمد نور الدين، **الهوية والاختلاف**، مرجع سابق، ص 69.

فهي أساس الوجود ومسكنه، والروح التي تلازم الأفراد والجماعات من أجل البقاء، وإضفاء المعنى على الحياة، وضمان ديمومتها واستمراريتها؛ لذلك، من اللازم فحص الرابط القائم بين المثقف والسلطة، والكشف عن التقاطعات والتمفصلات بينهما. ذلك هو الرهان.

العلاقة بين المثقف والسلطة، محاولة للكشف:

لم يكن المثقف يومًا ما محايدًا في علاقته بالسلطة، ولم يكن منفصلًا عنها أبدًا؛ بل يتحدّد وجوده بوجودها، وهو من يملك (الحقيقة)، ويوظفها في المجال العمومي، طبقًا لما تسمح به السلطة السياسية المهيمنة، ولا يكتفي بامتلاكها؛ بل يصدع بها أمام السلطة، لأنّ المثقف لا يستحقّ وضعيته الاعتبارية عن جدارة إلاّ من خلال كتاباته، وإبداعاته، وليس من وظيفته ومهنته، أو مما يدعي تمثيله والنطق باسمه؛ فإنتاجه وآثاره الأدبية والفنية والفكرية التي يساهم بها؛ هي التي تشهد له بحضوره ومساهمته في التحليل والتفسير والتغيير؛ لذا، يعد الاقتصار على الدور الأكاديمي المعرفي (استقالة) للمثقف، وتقصيرًا في أداء واجبه الأخلاقي، والذي يدعوه إلى الانخراط في معمعة الانتفاضات الشعبية، والنقاشات الثقافية والسياسية، مدافعًا عن القضايا العادلة ومبادئ حقوق الإنسان انسجامًا مع وظيفته الأصلية، فكانت ماهيته خليطًا كيميائيًا متجانسًا يجمع بين (إنتاج المعرفة)، و(الالتزام الأخلاقي والسياسي)، وواجب (الجهر بالحق)[30].

ولغرف المزيد من الدقة وتسييج المعنى؛ نستحضر المفكر الفرنسي (بيندا Penda): الذي تشكّل وعيه في خضمّ النقاش العمومي حول قضية (دريفوس Dreyfus) في فرنسا، في مقالته «خيانة الأساقفة»؛ يُعرّف بيندا (المثقف الحقيقي): أنه كل من لا يسعى وراء المزايا المادية والمكافآت، التي تُطوق عنقه وتُخرس لسانه، وتُكبل يده؛ فهو إذن، من يعيش (قرب البركان)، حسب تعبير نيتشه؛ أي قريبًا من هموم المواطنين، يقتسم معهم آلامهم، ويُعبّر عن آمالهم، ولا يتعالى عليهم ويعتكف في برجه العاج؛ فهو الملتزم بقضايا الناس، والمنخرط للدفاع عن المهمّشين والمضطهدين، وعن قيم العدالة والحقيقة والديمقراطية، حتى وإن استدعى ذلك منه مناوءة السلطة، هو ببساطة من يقول: (مملكتي ليست من هذا العالم)؛ فهو من يجازف بحياته تحت تهديد الصلب (تجربة المسيح)، أو النبذ، أو القتل، أو الإقالة[31].

30- أفاية محمد نور الدين، **ورقة عمل حول أداء المثقفين في معمعة الأحداث: ملاحات وتساؤلات**، بيروت، مجلة المستقبل العربي، 2013م، ص ص 117- 118.

31- Julien Benda ; **la trahison des clercs**.

ورد في كتاب :المثقف والسلطة ،مرجع سابق ،ص.110

لمّا كانت ماهية المثقف، إذن، سابقة على وجوده، كان محكومًا عليه؛ كي لا يخون وظيفته وطبيعته، أن يكون ملتزمًا ومنخرطًا في النقاش العمومي، لتخليص الفكر من لوثة الدوغمائية، ونقد الممارسات السياسية وفاءً لقضايا الإنسان والوطن، وبذلك؛ فإنّ: (المثقف عمومًا يَخون دوره، إن عطّل حاسّته النقدية، وسقط في التبريرية، وانتهى إلى مشايعة السلطة أو ممالأة الجمهور، طمعًا في مكافأة، أو امتياز، أو جاه، أو مركز اجتماعي؛ فهو، في هذه الحال، يزوّر معنى الثقافة ووظيفتها في المجتمع، ويعيد تعريف فعاليته خارج حدودها ونطاقها؛ فيحوّلها إلى سلعة خاضعة لمنطق العرض والطلب، وسياسة الاحتكار، كي تُدرّ عليه أكبر ربح مادي أو رمزي)[32].

لكن، في بعض الأحيان، يخون المثقف أدواره ويرتد على طبيعته، عندما يدفع باستقالته من العمل الميداني، وينكبّ على أداء دوره الأكاديمي الصرف، فيبقى صوته سجين أسوار الجامعة، أو المؤسّسة التي يشتغل بها، وأحيانًا أخرى، ينقلب على ماهيته؛ حينما يتحوّل المثقف إلى (داعية) يبشّر بخلاص البشرية، منتحلًا دورًا رسوليًا يقدس أفكاره، ويُخوّن غيره؛ فيسقط في شرك المناضل الحزبيّ، أو الداعية الذي يسعى بحماس المؤمن إلى تسويق إيديولوجيته، بكثير من التضليل والقليل من الحس النقدي، فينزلق نحو خدمة (رسالة إيديولوجيّة عظيمة) عديمة الفائدة، من حيث كونها تدعي امتلاك (الحقيقة المطلقة)، وتتنكر لكل معرفة نسبية، وكل جهد بشري محدود؛ فكانت الغلبة للنضال والتغيير على حساب الفهم والتفسير، والنتيجة؛ هي ولادة المثقف الفاشل[33].

لكن، هل يمكن الإعلان عن نهاية الداعية، أم أنّ الداعية لم يلق حتفه بعد، يعيش بيننا ويتلبس بلبوس الحربائيّة؟ أليس توصيف المثقف بالداعية ضربًا من جلد الذات، وقمعًا لكلّ مفكر نقدي حرّ؟

فهل يصحّ فعلًا؛ أن نعلن مع ميشيل فوكو عن (موت المثقف)، أم أنّ الأمر لا يتعدّى مجرّد تغيير للأدوار والمواقع؟ إذ بعد أحداث ماي 1968م، كثيرًا ما كانت تجري على لسانه العبارة الآتية: (كان المثقف، حتى وقت قريب؛ هو الكاتب بامتياز، وهو ضمير كونيّ، وكائنٌ حرّ يتعارض مع كلّ أولئك الذين كانوا يعتبرون مجرّد مؤهلات في خدمة الدولة والرأسمال (مهندسون، كتاب، أساتذة، ....إلخ)، إنّ عتبة الكتابة التي كانت خاصيّة مقدسة تلاشت اليوم)[34].

32- تعقيب بلقزيز عبد الإله على مداخلة محمد نور الدين أفاية، ورقة عمل حول أداء المثقفين في معمعة الأحداث: ملاحظات وتساؤلات، نفس المرجع، ص 122.

33- بلقزيز عبد الإله، **نهاية الداعية، الممكن والممتنع في أدوار المثقفين**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2010 الطبعة الثانية، ص ص 22- 23.

34- Michel Foucault, Dialogue avec M. Fontana، ورد في كتاب المثقف والسلطة، مرجع سابق، ص 109.

فإذا اعتبرنا أن للمثقف بدوره سلطة يستمدّها من خطاب الحقيقة باعتبارها سلطة، والمعرفة بوصفها سلطة، فهل يخضع بدوره لسلطة الدولة مثل باقي السلطات الموزعة داخل المجتمع؟ وهل احتواؤه من طرف أمّ السلطات يقوي سلطته أم يلغيها؟ وهل من الأفضل أن يخاطبها بكونه متملقًا وعينه على الامتيازات، أم من حيث كونه ناقدًا زاهدًا وغير مكافأ؟ ولماذا تسعى الدولة إلى استيعابه؟ هل لأنّها تخشى سلطته، وتريد إسكات صوته، أم تغريها سلطته وترغب في توظيف أفكاره وأطروحاته؟ وهل يُستدعَى المثقف من طرف الدولة ليقود ويُسيّر الشأن العام؟ أم فقط لتعزيز سياسات المؤسسات الرسمية وتبريرها في إطار ما يسمى بشراء النخب؟

إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات، تستدعي الإشارة إلى كون إشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة من أعقد الإشكاليات، نظرًا لاعتبارات كثيرة، تخصّ السلطة نفسها، والمثقف بعدها، وشبكة المصالح والأدوار المتقاطعة؛ فالسلطة مع الدقة، السيادة، تدبير المصالح والحفاظ عليها، الإمساك بزمام الحكم بالوسائل المختلفة: العلنية والخفية، والمشروعة وغير المشروعة، والشرعية وغير الشرعية، غايتها الضبط، وفرض النظام، نظامها هي بالضرورة.

أمّا مهمّة المثقف الخالصة، كما أسلفنا الذكر؛ فتكمن في قول الحقيقة وفق منطلقات منهجية صارمة، لا تخرج عن إطار العقل ومعاييره، والتجربة ومعطيات الواقع، وتفاعلاتهما المثمرة والدينامية.

غاية المثقف بناء الحقيقة وقولها بشجاعة، ولكنّ واقع السلطة يجعل المثقف كثيرًا ومتعددًا، ويبتعد عن هويته المتفردة في المعنى والدلالة، ويتفاعل مع السلطة، بشكل أو بآخر، شعوريًا أو لا شعوريًا، ويصل إلى حد التماهي، ويصير هو هي، وهي هو، مستلذًا إغراءاتها، وسحرها، ولا يرى الحقيقة إلا بعيونها أو بالأحرى نظاراتها الملونة. أو على النقيض من ذلك، يكون معارضًا شرسًا لكل سلطة، وما يترتب عن ذلك؛ من مزايدات، وتحامل، وحرب خفية تارة وعلنية مرات عديدة، بينما المثقف الموضوعي؛ غالبًا ما ينغلق على ذاته، حذرًا من بطش السلطة وسلطة المصالح، وعصيًا على كل محاولة لاحتوائه وإدماجه كأداة في منظومة الأجهزة الإيديولوجية للدولة ومؤسساتها.

وإذا عدنا إلى الأطروحات التي حاولت الإجابة على هذه الأسئلة التي سبق طرحها، كان لزامًا علينا أن نستحضر تلك التي قدّمها عالم الاجتماع الأمريكي (رايت ميلز Charles Wright Mills)، وركّز فيها على ضرورة أن يكون المثقف مستقلًا إلى أقصى حد، وأن يمتلك رؤية اجتماعيّة عميقة، وله قدرة على نقل أفكاره بكفاءة تأسر المتلقي، وتؤثر في وعيه، وتوجه سلوكه، ولكن تجدر الإشارة، كذلك، إلى المزالق التي تعترضه نتيجة استقلاليته؛ إذ يشعر بالغربة والتهميش والعجز تارة، وتارة أخرى بالرغبة في الانضمام

إلى المؤسّسات، والحكومات، والشركات الكبرى، فيصير (وكيلًا مأجورًا) ومنفصلًا عن جمهوره؛ لهذا كان واجب على المثقف، في نظر ميلز، أن يحرص على استقلاليته وجاهزيته للدفاع عن المبادئ الأصيلة، ومقاومة كلّ أشكال التدجين والقولبة، عبر العمل على نزع الأقنعة وكشف الحقائق، مع تركيز كلّ جهوده على السياسة وممارسات السلطة؛ لأنّه (إن لم يربط المفكر نفسه ذهنيًا بقيمة الصدق في الكفاح السياسي، فلن يقدر، على نحو مسؤول، أن يكون على مستوى التجربة الحيّة بكاملها)[35].

تلك الاستقلالية النسبية عن مؤسسات الدولة، تضفي على المثقف مصداقية أكثر، يضطر كي يحصنها ويقويها، إلى زيادة جرأته على قول الحقيقة عارية للسلطة والشركات الكبرى ذات النفوذ القوي، وذلك عبر طرحه للأسئلة المربكة والمحرجة، والتعبير عن مواقفه وآرائه في القضايا المطروحة على طاولة النقاش العمومي، وتجسيدها ميدانيًا في الممارسة السياسية والاجتماعية، من أجل مواجهة التطرف الفكري، والتعصب الديني، ثم فضح كل أشكال التعسف في ممارسة السلطة واستغلال النفوذ.

لكن، المفارقة التي يعيشها المثقف؛ هي كيف يمكنه أن يكون مؤثرًا في الرأي العام، وقادرًا على التغيير، في ظلّ حرصه على استقلاليته، وهامشيته، ولا انتمائه للهيئات والمؤسسات ووسائل الإعلام الحكومية والحزبية؟ وخاصة أمام تراجع الدور الثقافي والاجتماعي، جراء إهمال مقصود لقنوات تقليدية؛ كالجامعات، والمعاهد العلمية التي كانت تسمح له بالتعبير عن إبداعاته وأفكاره، مقابل سطوة إعلام الفضائيات، ومواقع التواصل الاجتماعي، ومراكز البحث التي (تبيع) الخبرة، إلى جانب الجهاز الإيديولوجي التقليدي للدولة، مما يعمق إحساسه بالعجز وضعف الإرادة على الفعل وصنع الحدث.

ليس في مصلحة المثقف، إذن، أن يستقل ويبتعد عن السلطة إلى درجة تهميشه وخفوت صوته، كما لا نعتقد أنه من المجدي الاقتراب منها إلى درجة الاحتراق بـ (نارها)، إذن، يجب أن يتخذ منزلة بين المنزلتين؛ أي موقعًا وسطًا بين الذوبان والمروق، وبين التمرد التام على السلطة والطاعة العمياء لها؛ فما جدوى أن يُعبّر المثقف عن أفكار سديدة إذا كان لن يسمعه أو يلتفت إليه أحد؟

35- Wright Mills ; Power, Politics and People;

ورد في كتاب إدوارد سعيد، صور المثقف، محاضرات ريث سنة 1993م، نقله إلى العربية غسان غصن، دار النهار للنشر، 1996م، بيروت، ص 36.

الوسطية تفرض على المثقف ألا يتموقع في علاقته بالسلطة، سواء بالتماهي معها؛ أي إعادة إنتاج خطاب الآداب السلطانية[36]، أو معارضتها واتهامها بالتضبيع[37]؛ ففي كلتا الحالتين معًا، الأمر سيّان والنتيجة واحدة، وهي: أن هويّته تتحدّد بطبيعة علاقته بغيره؛ أي بالسلطة، فينبغي أن تكون (الحقيقة) هي أعز ما يطلب لديه، سواء وجد نفسه مع السلطة أو ضدها؛ فالمثقف الذي (يبيع) ثقافته، ويضعها رهن إشارة السلطة، يصير خبيرًا لا مثقفًا؛ إذ لا يعلن عن الحقيقة عارية متى تمّ نزع الحجاب عنها كـ (أليثيا)؛ بل ينتظر أن يستشيره مسؤول أو مؤسسة، فما الذي كان يفعله (بروتاغوراس Protagor) غير بيع الفلسفة لأبناء الطبقة الأرستقراطية؟

لا أعتقد أنّنا في حاجة إلى مثقف يُنَظّر لـ (فقه الثورة)[38] خلال مرحلة الدعوة قبل تولّي إخوانه زمام السلطة، وبعد انخراطهم في منطق الدولة، ودخولهم كهف السلطة، تجده يُجرّم، إن لم يُكفر، الاحتجاج والتظاهر[39].

هنا، يصير (المثقف) داعية، ويصطفّ مع الحليف الإيديولوجي، لا مع الحق والحقيقة، أو مثقفًا محترفًا سوفسطائيًا يعتبر نفسه مقياس كل شيء، وهذا ما أشار إليه، كذلك، (محمد نور الدين أفاية) عند وصفه الفيلسوف النقدي بـ(السوفسطائي)، عندما صار براغماتيًا في مراكز التفكير الأمريكية thinkthanks[40].

ما الذي نريده إذن؟ نريد من المثقف أن يضع مسافة نقدية مع السلطة، دون تماهٍ أو تحامل، دون دُنوّ أو بوْن، إذا اقترب احترق، وإذا ابتعد مرق؛ لأنه، كما سبقت الإشارة، للسلطة ألاعيبها وخلفياتها ومراميها، وعلى المثقف أن ينأى بنفسه عن كل انصهار أو انشطار؛ فالحقيقة لا مجاملة معها ولا منفعة، ولا ينبغي إخفاؤها أو تجاهلها حتى وإن كانت تُؤْذي البعض؛ لأنّ الحجب يُؤْذي الوطن ككلّ؛ بل يتعين التعامل مع الحقيقة بوصفها قيمة معرفية وأخلاقية، مثلما تعامل (غاليلي Galilée) مع حقيقة دوران الأرض، مهما اهتزت لها عروش رجال الدين والسلطة القائمة.

السوفسطائية أو (النزعة الاحترافية) إذن، من أخطر التهديدات التي تواجه المثقف المعاصر، ولهذا، يقترح إدوارد سعيد مقابل ذلك: أن يبقى المثقف (هاويًا)، بمعنى؛ أن يلتزم بعدد كبير من القضايا العادلة،

36- انظر: التوفيق أحمد، **الأبعاد التعاقدية للبيعة في تاريخ المغرب**، محاضرة لافتتاح الدروس الحسنية الرمضانية، 2011م، مقال منشور في جريدة الشرق الأوسط الإلكترونية، عدد 11950، بتاريخ 17 غشت 2011م.

- http://archive.aawsat.com/details.asp?section=44&article=636091&issueno=11950#.V0mEczXhDcc.

37- انظر: جسوس محمد، **إنهم يريدون خلق أجيال جديدة من الضباع**، جريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد 2290، بتاريخ 12 نونبر 1989م.

38- الريسوني أحمد، **فقه الثورة، مراجعات في الفكر السياسي الإسلامي**، دار الكلمة، القاهرة، 2013م.

39- الريسوني أحمد، **أبناؤنا وأساتذة الغد...؟**، مقال منشور في موقعه الرسمي بتاريخ 15 أبريل 2016م، http://www.raissouni.ma/index.php/articles/1130.html

40- أفاية محمد نور الدين، **النقد الفلسفي بين مصادره الغربية وتجلياته في الثقافة العربية**، بيروت، مركز الدراسات والوحدة العربية، 2014م.

طبقًا لما يمليه عليه ضميره وعقله الأخلاقي؛ لأن السلطة أصبحت تطوق عنق المثقفين بالعطايا والجوائز والمكافآت، وتحاصرهم بسخائها عند تنظيم (المهرجانات الثقافية)، كي تضمن ولاءهم، وتبعيتهم، ومهادنتهم لممارساتها المبتذلة، وتعطيل وعيهم وحسّهم النقدي أمام أنصاف الحقائق التي تسعى لترويجها، ومحاصرة الجسد بكل أشكال المراقبة والمعاقبة لتطويعه؛ فينتهي المطاف بالمثقف (المحترف) إلى موظف وتقنوقراطي يتقبل وينفذ ما يطلبه منه الآخرون[41].

في حين يكتشف المثقف (الهاوي)؛ أنّ الاندفاع بقوة نحو امتيازات السلطة غير مجدي، كما لا يفيد إنكارها كذلك، أو التظاهر بأنّها غير موجودة، لهذا، عليه أن يتعامل مع كلّ أشكال التأثير الصادرة عن السلطة والشركات الكبرى ذات النفوذ القوي على أصحاب القرار السياسي، من خلال تقديم أفكار بديلة وبرامج عملية، تحمل قيم العدالة والمساواة والحرية، ولا تخضع لمنطق التجارة والربح المادي الآني، وأن ينخرط بإبداء الرأي حول كل حدث أو حديث عمومي، وكذا، طرح الأسئلة الأخلاقية المربكة على جميع الأنشطة الثقافية المرتبطة بالمجتمع والدولة والوطن، وألا يتعذر بحدود تخصصه الضيق والدقيق، أو سياج مهنته وحرفته؛ فـ (إميل زولا) عندما دافع عن (دريفوس) لم يتذرع بتخصصه كأديب بعيدًا عن السياسة. كما أن تخصص (برتراند راس Bertrand Russel) في الرياضيات والفلسفة، لم يرفع عنه عقوبة السجن التي أدّاها كضريبة على مواقفه الجريئة المناهضة لمشاركة بلاده في الحرب العالمية الأولى.

هل يدخل رفض الفيلسوف الفرنسي (سارتر Jean-Paul Sartre) سنة 1964م لجائزة نوبل للآداب في هذا الباب؟ بمعنى؛ هل هو في رفضه للجائزة، قد رَفَضَ أن يُطوِّق من يقف وراء جائزة نوبل عنقه بسلسلة وإن كانت من ذهب، خصوصًا، وأنه بنى أفكاره على نقد المؤسسات التي كان يعتبرها (مقبرة) المثقف. ولماذا لم يحظ (عبد الله العروي Abdallah Laroui) مثلما حظي بعض تلاميذه، بالمناصب السامية والأوسمة في وطنه، أو بعض الجوائز عن كتاباته المتميزة؟ وهل كان إعدام سقراط أول تعبير عن توتر العلاقة بين المثقف والسلطة؟ وهل تستهدف السلطة، دائمًا، إما اختراق وعي المثقف وتدجينه أو معاقبة جسده وإعدامه؟

إن مهمة المثقف تكمن في أن يحمل الأفراد والجماعات على التفكير والتساؤل بآليات الحوار والنقاش والنقد؛ فهو أداة للوعي، ومنتج للخطاب حول ذاته، والشروط السياقية لمجتمعه خاصة، والمجتمع الإنساني عامة؛ فهو المتعالي عن الجزئيات والممارسات الخاصة، «ألا يعتبر المثقف شخصًا كونيًا، لا من حيث

41- إدوارد سعيد، **الآلهة التي تفشل دائما**، ترجمة: حسام الدين خضور، دار النشر التكوين، 2003م، ص 91.

ظرفه التاريخي والثقافي الحديث وحسب؛ بل بسبب رؤيته المهنية، القديمة جدًّا (البحث عن الحقيقة في مختلف دوائر النشاط الإنساني)؟»[42].

خلاصة:

يمكن أن نخلص في الأخير، إلى أنّ قضية العلاقة بين المثقف والسلطة ذات طبيعة شائكة وملتبسة، تحتاج إلى المزيد من الدراسات والأبحاث، لتسليط الضوء على الجوانب الخفيّة والمظلمة في أركانها وتمفصلاتها، وليس من نافلة القول؛ التذكير بأن الحديث عن هذه القضية ليس الغاية منه الدفاع عن المثقف أو التطوع لحراسته وتبجيله، ولا تقزيم دوره أو التشكيك المطلق فيما قدمه، ومازال يقدمه، من إسهامات فاعلة؛ وإنما الهدف تعميق المناقشة حول مهامه الراهنة في زمن سبق فيه الزمن، الزمن العولمي الذي صار فيه المثقف على المحك أمام هول ثقافة الصورة وسحرها، وتغير مفاهيم الزمان، والمكان، والسرعة، وغيرها من المفاهيم العلمية.

مازال العديد من الناس يؤمنون برسالة المثقف، ويأملون منه المزيد من التنوير والتحرير، في ظلّ انتشار (ثقافة) الإرهاب والتطرّف بكلّ أشكالها وتمظهراتها، فلا يمكن لكلّ عقل سليم أن ينكر إسهامات أعلام الفكر منذ فجر التاريخ إلى اليوم، في تقدم البشرية والارتقاء بها، وانتشالها من العبودية والاستغلال، وهذا الأمر يتجسّد في خصوبة الفكر الأسطوري، وأعمال الفلاسفة وأنساقهم الفلسفية، ولدينا في أمثولة الكهف لأفلاطون خير مثال في هذا الصدد؛ إذ يقترح أفلاطون على أهل الكهف عُدّة بيداغوجية وديداكتيكية للتحرر من قيود العادة وسلطة اليومي، أو ما يسميه بعالم الواقع والنسخ، والتطلع إلى العالم الحقيقي، والخير والجمال عبر الجدل الصاعد.

إنّ مفاعيل السلطة وخيوطها العنكبوتية، وإستراتيجيّاتها المعقدة، تجعل المثقف يصطدم بها، وتتحول رهاناته إلى اتجاه آخر؛ اتجاه ما هو مادي من أجل تحقيق قدر من السلطة والثروة في مجتمع كل شيء يباع فيه ويشترى، على حدّ تعبير جلبير هوتو[43].

لذلك، سجّلنا أنّه من المؤسف أن يصير المثقف مستشارًا محترفًا، يقدم استشارات مدفوعة الأجر لمؤسّسات بعينها، في الأوقات الحرجة عينها، بالخطابات المتحيزة عينها، مستخدمًا اللغة المفاهيمية التي ترتضيها السلطة، فيسكت حينما نريد منه أن يتكلم، ويصدر أحكام قيمة حينما نريد منه أن يُشخّص،

42- جيرار ليكلرك، مرجع سابق، ص ص 6-7.

43- جيلبير هوتو، **كتاب التفلسف 2**، إشراف: ك. دولكمبان ور. ماغيوري. فايار، 2000م، ص 323.

ويفكك ويعلق الأحكام، فكيف يستطيع البوح بـ (الحقيقة) التي يؤمن بها، ويدعم الفئات التي كان يقتسم معها نفس الخندق؟

إذن، ينبغي التشديد على كون المثقف ليس مجرد موظف فقط، كما أن السلطة ليست مجرد قوة رادع فقط؛ بل إن استقلالهما الكلي والشامل، ودون أن يتحدد كل منهما بطبيعة علاقته بالآخر من جهة، أو تفاعلهما الإيجابي وتداخلهما من جهة ثانية، ولن يكون الغرض والقصد منه إلا الاستمرار في خدمة الإنسان، فكرًا وروحًا، فعلًا وممارسة.

لائحة المراجع:

- ابن خلدون عبد الرحمن، **مقدمة: ابن خلدون**، وهي مقدمة الكتاب المسمى **(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)**، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

- الجابري محمد عابد، **المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2001م.

- الشيخ محمد، **المثقف والسلطة، دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر**، دار الطليعة، بيروت، 1991م.

- بوسريف صلاح، **المثقف المغربي بين رهان المعرفة ورهانات السلطة**، دفاتر وجهة نظر، عدد 28، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط- المغرب، الطبعة الأولى، 2014م.

- كاسيرر إرنست، **مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية، أو مقال في الإنسان**، ترجمة: إحسان عباس، بيروت، دار الأندلس، 1961م.

- أفاية محمد نور الدين، **الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش إفريقيا الشرق**، الدار البيضاء، 1988م.

- الوريا شي قيس مرزوق، **محاضرة حول أدوار المثقف في زمن العولمة**، تنظيم الجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة، فرع وجدة- المغرب، 2016/05/27م.

- شراك أحمد، **فسحة المثقف قبل وبعد 11 شتنبر2001م**، ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء- المغرب، اتصالات سبو، الطبعة الأولى، 2006م.

- شراك أحمد، **الثقافة والسياسة**، سلسلة شراع، طنجة- المغرب، 2000م.

- أفاية محمد نور الدين، **ورقة عمل حول أداء المثقفين في معمعة الأحداث: ملاحظات وتساؤلات**، مجلة المستقبل العربي، بيروت، 2013م.

- بلقزيز عبد الإله، **نهاية الداعية، الممكن والممتنع في أدوار المثقفين**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2010م.

- إدوارد سعيد، **صور المثقف، محاضرات ريث سنة 1993م**، نقله إلى العربية: غسان غصن، دار النهار للنشر، بيروت، 1996م.

- التوفيق أحمد، **الأبعاد التعاقدية للبيعة في تاريخ المغرب**، محاضرة لافتتاح الدروس الحسنية الرمضانية، 2011م. انظر: مقال منشور في جريدة الشرق الأوسط الإلكترونية، عدد 11950، بتاريخ 17 غشت 2011م.

- جسوس محمد، **إنهم يريدون خلق أجيال جديدة من الضباع**، جريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد 2290، بتاريخ 12 نونبر1989م.

- الريسوني أحمد، **فقه الثورة، مراجعات في الفكر السياسي الإسلامي**، القاهرة، دار الكلمة، 2013م.

- الريسوني أحمد، **أبناؤنا وأساتذة الغد...؟**، مقال منشور في موقعه الرسمي بتاريخ 15 أبريل 2016.

- أفاية محمد نور الدين، **النقد الفلسفي بين مصادره الغربية وتجلياته في الثقافة العربية**، مركز الدراسات والوحدة العربية، بيروت، 2014م.

- إدوارد سعيد، **الآلهة التي تفشل دائمًا، ترجمة: حسام الدين خضور**، دار النشر التكوين، بيروت، 2003م.

- فيبر ماكس، **العلم والسياسة بوصفهما حرفة**، ترجمة: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، يوليوز 2011م.

- أرسطو، **السياسات، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية (الأونسكو)، ونقله من الأصل اليوناني إلى العربية، الأب أوغستينس بربارة البولسي**، بيروت- لبنان، 1987م.

- أفلاطون، **الجمهورية**.

- جيرار ليكلرك، **سوسيولوجيا المثقفين**، ترجمة: د. جورج كتوره، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي– ليبيا، الطبعة الأولى، يناير 2008م.

- جيلبير هوتوا، **كتاب التفلسف 2**، إشراف: ك. دولكمبان ور. ماغيوري. فايار، 2000م.

- Jean Baechler, **Le Pouvoir pur**, Calmann Lévy1978.
- Abdelmalek Ouard, **La sociologie au Maroc: retour réflexif et engagé d'un praticien.**
- Boudon R. (été 2009**), «À quoi sert la sociologie**?», Esprit critique, vol. 12, n° 02, pp. 9-22,
- Michel Foucault ,**Histoire de la sexualite 1 La volonte de savoir.** ,édition Gallimard, Paris, 1976.
- https://sociologies. revues. org/5148
- [http://www.espritcritique.fr/publications/1202/esp1202.pdf].
  DOI : 10. 3917/cite.010.0133
- http://archive.aawsat.com/details.asp?section=44&article=636091&issueno=11950#.V0mEczXhDcc
- http://www.raissouni.ma/index.php/articles/1130.html

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017